ما يجب على المعلم

رسالة للمرحوم الدكتور صروف لم تنشر قبلاً

[في اوائل الربيع الماضي طُلب الى المرحوم الدكتور صرُّوف ان يزور القدس الشريف ليلقي خطبة في جمهور من اساتذة فلسطين فاعتذر عن تلبية الطلب ولما الحّوا عليهِ كتب الرسالة التالية لتتلى في الاحتفال الذي ينوى عقدهُ. ولكن يظهر انهُ نسيها فبقيت مطويّة بين اوراقهِ الى ان عثرنا عليها في الشهر الماضي فرأينا ان نذيعها لقراء المقتطف لما فيها من قواعد حكيمة وآراء صائبة هي خلاصة اختبارهِ وبحثهِ في شؤون التعليم والتهذيب مدى ستٍ وخمسين سنة]

اخواني اساتذة مدارس فلسطين

طُلِب مني ان اكتب لكم شيئاً عن اختباري في التعلّم والتعليم فاعتذرت عن اجابة الطلب لان موضوعاً مثل هذا يشتمل ضرورة على كثير من الانانية ولكن الطالب لم يعفني بل ألحَّ في الطلب الى ان وعدتهُ باجابة طلبهِ. ولا اراني في سعة من الوقت ولا في مقدرة من الصحة لابحث في هذا الموضوع طويلاً ولكن الذي اقترح عليَّ الكتابة فيهِ عفاني من التطويل وقال حسبي ما يملأ صفحة او صفحتين. فهل استطيع ان ادبج في صفحة او صفحتين ما لا يستوفى في مجلد كبير ولكن ما لا يدرك كلهُ لا يترك كلهُ

***

تتمثل امامي الآن حادثتان وقعتا لي وكان لهما شأن كبير في نفسي. لما كنت اطلب العلم في مدرسة عينية بلبنان كان احد معلميَّ فيها من اطيب الناس قلباً واشدهم تديُّناً وكان في ارض المدرسة حديقة صغيرة تمنح لمن يشاء من التلاميذ ان يختط قطعة منها ويزرعها كما يشاء فاختارت قطعةً مساحتها نحو متر مربع وزرعت فيها خيّاراً وبطاطساً. واراى الآن ان ذلك اهم عمل سُمح لي ان اعملهُ في صباي. واتفق ذات يوم وكان يوم احد اني رأيت زراعتي ذبلت من العطش فاتيت بابريق ماء ورويتها ورآني ذلك المعلم فانتهرني لاني رويتها يوم احد قائلاً ان هذا مخالف لوصية الله. فاجبتهُ على الفور ان الله يمطر النبات يوم الاحد كما يمطرهُ في غيرهِ. وكان يحسن بهِ حينئذٍ ان يبشَّ في

وجهي ويقول مثلاً « ان الله امرنا بالانقطاع عن العمل في يوم الراحة وهو لا يأمرنا الا بما فيه نفع لنا اما اعماله فهو ادرى بها منا » لكنهُ لم يفعل ذلك بل بدت عليه علامات الغيظ من جوابي لهُ وفرض عليَّ قصاصاً كنت اكرههُ اشد الكره وهو ان اكنس الغرفة التي انام فيها اسبوعاً كاملاً . كان هذا المعلم قليل الحيلة فاتل الرأي ترك التعليم بعد حين ولم يفلح في عمل من الاعمال التي تعاطاها وتمرَّض بقلة حكمته لمرض قضى عليه . وقد تعلمت منهُ ان لا احذو حذوهُ

***

الحادثة الثانية حدثت لي وانا في صف المتين في المدرسة الكلية (جامعة بيروت الاميركيَّة الآن) كنا اربعة ننام في غرفة واحدة واتفق ذات ليلة اننا جلسنا نلعب بالورق لعباً بسيطاً للتسلية وكانت ليلة احد ولا دروس في اليوم التالي تستدعي ان نستعد لها . وتمادينا اللعب فبقينا فيه الى الصباح ورفاقي الثلاثة يدخنون والتدخين محظور في غرف النوم . ودخل الرئيس الدكتور دانيال بلس غرفتنا في الصباح وانا فيها فشمَّ رائحة الدخان والبزول ورأى ورق اللعب فعبس وقال « تدخين في غرفة النوم ولعب بالورق الى الصباح ! » فقلت لهُ اني لا ادخن ولكنني لعبتُ وهذه آخر مرة امسك الورق فيها ومسكت الورق ومزقتهُ ورميتهُ من الشباك فزالت العبوسة من وجهه وقال احسنت وخرج . ومضت سنون كثيرة بعد ذلك وانا اتذكر وعدي لهُ ولا امسك الورق بيدي . ومثل هذا الشمم الممزوج باللطف كان ذلك الرئيس العظيم يعامل تلاميذ الكلية فاستفادوا كلهم من اخلاقه العالية ما يذكرونهُ بالشكر الجزيل

***

واذا راجعت ما اتذكرهُ من سير الذين علموني والذين علمتهم منذ كنت اتعلم مبادىء القراءة الى ان تركت التعليم من نحو اربعين سنة اني استنتج منهُ النتائج التالية

الاولى ان تهذيب الاخلاق اهم جدًّا من تثقيف العقول . وهذا التهذيب يقتضي ان يكون المعلم على خلق عالٍ لا يكذب ولا يرائي ولا يداهن مترفعاً عن الدنايا يستعمل الشدة في محلها واللين في محلهِ . فاذا كان كذلك سهل عليهِ ان يهذب اخلاق تلاميذهِ لانهم يصيرون يقتدون بهِ ويحبونهُ ويحبونهُ . واذا كانت اخلاقهم فاسدة لا تصلح فاخراجهم من المدرسة ينفع غيرهم ولا يزيدهم ضرراً ومدرسة العالم تصلحهم او تحطمهم واسمى الاخلاق الفاضلة الصدق والشمم والشهامة

الثانية ان اكرام النفس في المنزلة الثانية بعد تهذيب الاخلاق. كل ولد اذا فسح لهُ في الاجل صار عضواً عاملاً في الامة لنفعها او لضرها فعلى المعلم ان ينظر اليه هذا النظر وهو من هذا القبيل كالبستاني الذي يرى نبتةً صغيرة من التفاح او البرتقال فلا يحتقرها لصغرها بل ينظر الى ما تصير اليه فيربيها ويهذبها ويتعهدها بكل ما ينبغي حتى تأتي بثمر جيد غزير واضرّ شيء بالتلميذ ان تظهر احتقارك لهُ. فاذا عمل عملاً يستحق الاحتقار فاظهر احتقارك للعمل لا للعامل واجتهد حتى تجعلهُ ينظر اليه كذلك ويأنف منهُ واذا عمل عملاً مجيداً فامدحهُ لهُ وامدحهُ عليه

الثالثة انهُ يطلب من المعلم تقوية ابدان التلاميذ وحفظ صحتهم بالحث على الرياضة البدنية ومنعهم عن كل ما يضعف الجسم او احد اعضائه ولاسيما العينين . ولا مانع من ان يشاركهم في بعض الالعاب الرياضية اذا كان يحسنها ولكن لا يليق به ان يتبذل او يظهر انهُ اضعف من تلاميذه لئلا تقلّ هيبتهُ في نفوسهم

الرابعة ان تثقيف العقل يأتي بعد كل ما تقدم ولو كان المفهوم ان تثقيف العقل هو الغرض الاول المقصود بالذات من التعليم لان من يأتي الثلاثة الاولى اي تهذيب الاخلاق واكرام النفس وقوة البدن يصير عضواً عاملاً مفيداً في المجتمع الانساني ولو كان اميًّا ولكن اكبر العلماء والفلاسفة لا يستفيد ولا يفيد اذا كان فاسد الاخلاق صغير النفس عليل الجسم

***

وتثقيف العقل يتناول اموراً كثيرة وحسبي ان اشير الى اثنين منها اراهما في الدرجة العليا من الاهمية . الاول التوفر على تعلّم اللغة الوطنية او بذل المعلم همتهُ لكي يعلّم تلاميذهُ لغتهم حتى يحسنوا فهمها وكتابتها لا لان اتقان اللغة يفيد المرء فائدة كبيرة كاتقان صناعة الطب او صناعة المحاماة بل لان من يحسن لغتهُ يزيد اكرامهُ لنفسه واعتزازهُ بها ويصير اقدر من غيره على فهم ما يقرؤهُ من العلوم والفنون. ويقوم اتقان اللغة بمطالعة نفائس الكتب نثراً ونظماً واستظهار الكثير منها ودرس قواعد الصرف والنحو والبيان والتمرّن على الكتابة الصحيحة

والامر الثاني قرن العلم بالعمل في المدرسة. فاذا كان العلم لغةً وجب ان تقرن معرفة قواعدها بالتمرن في التفكيك والاعراب والانشاء الصحيح . واذا كان حساباً فيجل

المسائل المختلفة ولاسيما ما يتعلّق منها بالاعمال العادية تجارية كانت او مساحية . واذا كان جغرافية فبرسم الخرائط وكتابة وصف البلدان وهلمّ جرًّا

وهنا اسمحوا لي ان اروي لكم نادرة تعلّقُ بي وكان لها الشأن الاكبر في حياتي لما انتدبني مدرس الفلسفة الطبيعية في المدرسة الكلية سنة ١٨٧٣ دعتني عمدة المدرسة لتدريس هذا الفن فيها وكنت صغير السن قليل الاختبار واساتذة العلوم العالية مثل فان ديك وورتبات من كبار العلماء وانا تلميذهم واصغر من اولادهم سنًّا فسألت الرئيس بلس عما اخطر لي على بالهِ حتى اختارني لهذا المنصب الرفيع فقال : «الا تتذكر انك وانت تلميذ في السنة الثالثة ذهبت مع اخوانك الى النزهة قرب بيروت وصنعت هناك آلة من القصب تدور بانصباب الماء فيها وخروجهِ منها على مبدإ طاحونة بارکر» قلت بلى فقال : «من ذلك الوقت رأيت انك تحب العلوم الطبيعية وتدرك مبادئها وتميل الى العمل بها ومن كان كذلك يحسن تعلمها وتعليمها». فشكرتهُ وزدت رغبة في الدرس والتدريس وبذلت جهدي حتى اجعل تلاميذي يقرنون العلم بالعمل فصنع واحد منهم آلة كهربائية وجرساً كهربائيًّا وانا ادرّسهُ الطبيعيات منذ نحو خمسين سنة . ومما يذكر من هذا القبيل اني والتلميذ في مدرسة عبيه نسخت ملحمة الاعراب وشذور الذهب فزدت رغبة في اللغة ثم لما انتقلت الى المدرسة الكلية طلب مني رئيسها ان ادرّس احد الطلبة مبادئ الصرف والنحو فانجلت لي قواعدها بالتدريس اكثر مما انجلت وانا ادرسها

ومما يستحق الذكر هنا ان المعلمين في المدارس القروية التي كانت منتشرة في لبنان منذ اكثر من ستين سنة كانت تكل الى الكبار من التلاميذ تعليم الصغار منهم . وهذه الطريقة احكم الطرق فان الولد الذي يعلّم غيرهُ يصير يحترم نفسهُ فضلاً عن ان ما يعلمهُ لغيره يرسخ في ذهنهِ . ويصير صغار التلاميذ يحترمون كبارهم وتطمح نفوسهم الى التمثل بهم متى كبروا

هذا واظنكم يا اخواني تعرفون هذه الحقائق كلها وقد تكونون عاملين بها لكن الذكرى تنفع على كل حال . والمعلم الذي يجعل خير امتهِ نصب عينيهِ لا تتعذر عليهِ معرفة الاساليب التي تؤدي الى ذلك . وارجو ان تتغفروا ما في كلامي من الانانية فاني انما ذكرت ما ذكرتهُ من قبيل ضرب المثل .